

نظرية النظم و امتداداتها الأسلوبية

الأستاذ : محمد الصغير أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي يحيى فارس

المدينة

نظرية النظم وامتداداتها الأسلوبية :

إن نظرية النظم تشتمل على حدود تداخل مع المنهج البنيوي الذي طغى على الدراسات الغربية الحديثة، وذلك لما بينهما من وشائج تنم عن التقارب أحيانا أو التطابق أحيانا أخرى، ولعلّ هذا التقاطع يمتد ليصل إلى دائرة الأسلوبية، وهذا لأن الأسلوبية قد نشأت نتيجة لمواصلة البحث في المنهج البنيوي الذي مهد له دي سوسير، ولذا كان من الطبيعي أن ينهض تلامذته بإرساء دعائم الأسلوبية وعلى رأسهم شارل بالي(Charles Bally)* الذي تأسس عمله على ربط الأسلوبية ببنية اللغة وظاهرة النظم في النص وذلك من منطلق اعتبار الأسلوبية وصفا للنص الأدبي وفق معطيات لسانية، وعلى اعتبار "أن الأسلوبية هي منهج لساني"²³⁶.

1) البعد الأسلوبي لنظرية النظم:

لقد اشتغلت الأسلوبية في حقل الأسلوب والبناء التعبيري وكل ما يتأسس عليه العمل

* هو أحد تلامذة دي سوسير ولد في جنيف عام 1865 وتوفي سنة 1947م، تبنى المنهج المنهج وألف على ضوئه مؤلفات منها (مصنف الأسلوبية الفرنسية، المجلد في الأسلوبية)، ولمزيد من التوضيح ينظر -الأسلوبية والأسلوب- ص 241 عبد السلام المسدي -عدنان بن ذريل- ص 141ن اللغة والأسلوب.

²³⁶ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 48.

الأدبي، من قيم تعبيرية وشعورية تحقق فنية النص الأدبي، وتمنحه مسحة جمالية، وقد "تنبه إلى مثل هذه الرؤية أحد أتباع شارل بالي وهو مارسيل كريسو فنظر إلى الأسلوبية على أنها مفهوم تعبري يبحث في الحدث الجمالي ويربطه بالاعتبارات النقدية ويراعي فيه علاقة الأسلوب بالبلاغة"²³⁷.

ومن هنا نخلص إلى أن الأسلوبية هي مركب لغوي تعبري، ولذلك فإن نظرية النظم تكون بذلك قد رسّخت هذا المفهوم نفسه، لأنها تتأسس على مفهوم العلاقات اللغوية التي يتضمنها كل تعبير فيما يقتضيه كل مقام تعبري.

إن المتتبع لمنهج عبد القار الجرجاني يلفه قد ميّز بين النظم والأسلوب لأن مصطلح النظم عنده أعمق مفهوما من مصطلح الأسلوب، وقد اتضح لنا ذلك من خلال عنايته به عناية خاصة، إذ بالغ في تكراره والتأكيد عليه في مؤلفاته وخاصة الدلائل والأسرار، وذلك لارتباطه ارتباطا وثيقا وبالبنية اللغوية ومختلف تراكيبها توخيا لمعاني النحو، ونجده يعرف الأسلوب بأنه وسيلة في الاقتداء وطريقه في الكتابة تتميز من كاتب لآخر، وذلك من خلال تحديده الأسلوب على أنه نمط شكلي تعبري، إذ نجده يقول: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوبا-والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال: قد احتذى على مثاله"²³⁸، وهذا تحديداً للأسلوب على أنه المنوال في نمط الكتابة، وقد ذهب في هذا المنحى أحمد الشايب إذ لم يجد فرقا يذكر بين الأسلوب والنظم، وذلك من خلال توضيحه للأسلوب على أنه "طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه، هذا تعريف الأسلوب الأدبي بمعناه العام"²³⁹، وإننا لواجدون هنا أن تصور الشايب للأسلوب يقترب من تصور ابن خلدون في تحديده لماهية الأسلوب، إذ يرى هذا الأخير أن الأسلوب هو مركب من علوم النحو والبلاغة والأدب وهذا في معرض حديثه عن صناعة الشعر بقوله: "اعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ به، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى هو وظيفة الإعراب لا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان،

²³⁷ محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص 37.

²³⁸ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 361.

²³⁹ أحمد الشايب، الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة، القاهرة،

ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه، الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية²⁴⁰ وهنا تتحقق المقارنة المفهومية للمصطلح بين عبد القاهر وابن خلدون لأنهما يشتركان في الأصول الأولى لتصور معاني النظم، وإنما إذا ولجنا باب المقاربة بين مصطلح النظم عند الجرجاني ومصطلح الأسلوبية عند المعاصرين باعتبار الأسلوب هو قسم رئيس من الأسلوبية، تبين لنا أن عبد القاهر لم يهتم في نظريته بالجملة العربية المفيدة المجردة، ولم يذكر الألفاظ بالصياغة، وهذا ما يقوده إلى اشتراط مصطلح آخر وهو السياق أو ما يعبر عنه بالأسلوب، إلا أن مصطلح النظم يظل قاصرا على احتواء مفهوم مصطلح النظم عند الجرجاني وهذا ما يسوغ لنا استبداله بمصطلح الأسلوبية وذلك لأن (الأسلوبية الآن تتخصص بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوي صياغته)²⁴¹، وذلك خلافا لمصطلح الأسلوب الذي يقصد به عادة طريقة الكتابة أو فن القول.

إن حدود الأسلوبية في منهج عبد القاهر البلاغي تتوسع لتشتمل البعد اللغوي الشكلي الملفوظ والبعد الفكري والنفسي، لأن هذين البعدين يتلاحمان تلاحما قويا في ظل نظرية النظم البلاغية، وذلك لأن "بناء التراكيب اللغوية ونظم الكلام وتأليفه، يحتاج إلى دقة في الفهم، وروية وبعد في الرؤية والبحث عن الدلالات المختلفة وما يستتبعها من المعاني القائمة كلها على قواعد النحو"²⁴²، وهذا لأن العمل الفني -شعرا كان أم نثرا- يعدّ نشاطا لغويا بالدرجة الأولى، إذ لا يمكن أن يفهم أيّ منهما إلا بالاعتماد على المفاهيم النحوية وعلى ضوء القوانين النحوية التي تحقق له العصمة من الوقوع في اللحن، وإن "مدلوله الحيوي لا يتذوق إلا في ضوء المؤلف من نظام العبارة وتكوينها النحوي، كما يرى ذلك معظم النقاد والبلاغيين في التراث الأدبي واللغوي"²⁴³، وعلى ضوء هذا المفهوم فإن منهج الجرجاني في نظرية النظم يتأسس على معطيات النقد الأدبي، وذلك بالاعتماد على تحليل البنية اللغوية الخاضعة لقواعد التركيب ومعاني النحو، عبر مواجهة النص الأدبي انطلاقا من مكوناته البنوية، ثم الانتقال إلى معاني النص الحافة، وذلك قصد الوصول في النهاية إلى موطن الإبداع أو مواقف التكوين الجمالي، ولهذا استحق منهج الجرجاني أن يوسم بأنه منهج لغوي لساني، لأنه يتفق إلى حد بعيد مع ما تدرسه الأسلوبية الحديثة باعتبارها منهجا لسانيا، "يدرس النص الأدبي حسب طرائق مستقاة من

²⁴⁰ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، بيروت، دار القلم، ط1، 1978، ص570.

²⁴¹ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص24.

²⁴² عبد الفتاح لاسين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، الرياض، دار

المريح للنشر، ص106.

²⁴³ تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، ص154-155.

اللسانيات"²⁴⁴، وذلك ما يرتبط بفاعلية اللغة، وإن الصناعة اللغوية تعدّ إحدى قوائم الإبداع الأدبي وعنصرا فاعلا في بنائه، وللغة الأثر المباشر في تحديد تكوينه الفني، ذلك أن عبد القاهر يتعامل مع النص الأدبي على أنه فن لغوي، وإن تعامله هذا يتفق مع تعامل الشكلايين والنص الأدبي في الدراسات الغربية، وذلك كما جاء عند مشاهير الأعلام مثل فكتور شلوفسكي (Victor shloveski) ورودمان داكسون (roman jackobson) لأنهم اعتمدوا على نظرية الخلق اللغوي، فاستمدّوا منها تعليلاتهم والتزموا في تعاملهم مع النص على التفسيرات اللغوية، وذلك كما يقول أحد الدارسين: "وتنطلق الشكلائية من أن الأدب فن لغوي وأن عنصري اللغة والشكل هما أساس بنائه الفني، على أساس أن اللغة الأدبية وسيلة إبلاغ وغاية فنية في وقت واحد، وأن قيمة الأدب تكمن في صياغته"²⁴⁵. وهم في ذلك يلزمون شروطا ثابتة تتأسس عليها الأسلوبية ومنها:

- الاهتمام بالصياغة التعبيرية –التي تكاد تقترب من مفهوم النظم- وذلك إلى جانب العناية بالصورة الأدبية التي تشكل في النهاية اللغة التعبيرية الفنية.
- إن العمل الأدبي هو عبارة عن بناء لغوي، وهو يهدف إلى إبراز ملمح فني، وذلك لأن المتعامل مع النص الأدبي يقتضي "أن يعتمد في موقفه على تحليل هذا البناء اللغوي في جانبه الأسلوبي من أجل الكشف عن العلاقات التي تجمع بين عناصر البناء المختلفة"²⁴⁶، لأن هذا لا يعني البتة أن الأسلوبية تُعنى فقط بالبحث عن الخصائص اللغوية والشكلية للنص الأدبي وإنما تولي عناية للعلاقة القائمة بين مضامين النص الأدبي وطبيعته اللغوية، ومن هذا المنطلق فقد اهتم عبد القاهر في منهجه البلاغي – الأسلوبي- بهذا الترابط العضوي بين النص الأدبي ومكوناته اللغوية، وذلك كنتيجة كان قد خلص إليها في بحث نظرية النظم من جوانبها البلاغية الأسلوبية، إذ نلفه لا يفتأ يردّد فكرته حول اللغة والكلام، أو بين (الوضع والاستعمال)، وذلك لأنه يرى أن "الاستعمال هو الذي يمنح اللغة حيويتها وفعاليتها"²⁴⁷، ولذلك يرى عبد القاهر أن المتكلم هو الذي يكسب الكلام أوصافا متفاضلة من حيث المزية، وهذه الذات المتكلمة هي قطب الرحي في الحدث الكلامي، فلو أخذنا عنده مثلا مفهوم الفصاحة لوجدناه يحدده بأنه "عبارة عن

²⁴⁴ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص48.

²⁴⁵ شايف عكاشة، مفهوم الأدب في النقد الأدبي المعاصر، 1990، ص218.

²⁴⁶ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، القاهرة، 1994، ص184.

²⁴⁷ نور الدين محمد دنياجي، التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، ص85.

مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة²⁴⁸ أي لا تحتكم إلى واضع اللغة أو للوضع الأولي الخام للألفاظ، بقدر ما تتحدد أساساً بمقتضى الاستعمالات الأسلوبية واللغوية، وهذا ما يؤول إلى مكانة المتكلم في العملية اللغوية، موضحاً إياه بتساؤله: "ينبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئاً ليس هو له في اللغة حتى يجعل ذلك من صنيعه مزية يعبر عنها بالفصاحة"²⁴⁹، ويجب عن ذلك بقوله: "وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئاً أصلاً، ولا أن يحدث فيه وصفاً... وإن فعل ذلك أفسد على نفسه وأبطل أن يكون متكلماً"²⁵⁰، ومن هذا المنطلق يرى عبد القاهر أن اللغة هي السفير بين الملقى والمتلقي والوسيط بينهما بقصد التواصل وتأدية الدلالة عن الأغراض والمقاصد، وإن اللغة في نظره لا تتميز بصفة السفير أو الوسيط إلا إذا وظفت تقنيات محددة تخضع لمبدأ تعليق الكلم بعضها ببعض وذلك في مستوى التراكيب التي تنتظمها، ويبقى إلى جانب ذلك أهم شرط عند الجرجاني هو السهولة وعدم التكلف مع محاولة إصابة الغرض دون تعقيد، ومعنى هذا أن سفارة الألفاظ اللغوية تتبدى بمظهرين أولهما تكمن بين المتكلم ومعناه والثانية بين معنى المتكلم المقصود وفهم السامع وتمثل ذلك على النحو التالي:

المتكلم/═══════════ السفارة اللغوية ═══════════ السامع/المعنى المقصود

إن عبقرية المتكلم لا تكاد تنفصل عن عبقرية اللغة باعتبارها حاملة ومختزلة للصور والأشياء والأحاسيس في الألفاظ أفراداً وتركيباً، إذ تعزى بالدرجة الأولى إلى "كيفية النظم والتأليف أو التركيب، ذلك أن التركيب، والتركيب وحده، هو الذي يمنح لأسلوب هذا المتكلم أو ذاك درجة معينة في سلم الإنشاء الجميل المعبر"²⁵¹، ومن ثم فقد تفتن عبد القاهر إلى ضرورة حذق اللغة من حيث الإلمام بطرائقها في التركيب والإفراد والإحاطة بالقواعد لتحقيق الانسجام من جهة وبلوغ التعبير الجميل من جهة أخرى، فأما مستوى الانسجام فيقصد به تواءم اللفظ مع المعنى حيث ينبغي أن يشكلاً كلا متكامل لا يقبل الفصل بينهما، أما مستوى التعبير فيعني نقل الانفعال والصورة إلى المخاطب في شكل يعبر فعلاً عن المراد ويصيب مواقعه الحساسة في

²⁴⁸ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 308.

²⁴⁹ عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع، نفس الصفحة.

²⁵⁰ عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع، نفس الصفحة.

²⁵¹ نور الدين محمد دنياجي، التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، ص 91.

نفس السامع²⁵²، وذلك بحكم أن اللغة توجب دائماً مستوى خاص من النظام والترتيب، لأن اللفظ أو –العلامة- قد "تتعدّد أو تتكاثر، فلا تبقى إشارة فردية تقوم بذاتها ولذاتها، بحيث تفضي إلى دلالة معزولة، فإن هي تعددت وارتبطت بجنيساتها ارتباطاً متصلاً بنوعية الدلالات التي تفيدها جميعاً تحولت إلى شبكة من العلاقات، وعندئذ تنشأ بنية تكون حصيلة اندراج العلامة في نسيج متمثل، وقد تظل البنية فريدة معزولة"²⁵³، وهذا ما يتماشى مع موقف عبد القاهر إزاء منظومة اللغة التي يميزها طابع الانسجام والاختزال إذ يكسبان التعبير طابعاً جمالياً خاصاً وذلك باعتبارهما قطبين أساسيين في كل عملية تبليغية، وإن اللغة باعتبارها منظومة اجتماعية جاءت قصد اختزال الموجودات والأفكار في شكل رموز معبرة متألّفة في نسق –نظم- خاص، ولذلك فإن طبيعة اللغة تحتمّ التقيّد بهذين العنصرين حتى تتكون عملية التعليق أو التركيب في مستوى دقيق ذي منحى اختزالي وفني، وهنا نلّف عبد القاهر وهو يميّط اللثام عن توجهه هذا بالوقوف على بعض الملامح الأساسية وذلك من خلال وقوفه على مستويات التركيب في قوله تعالى: (وجعلوا لله شركاء، الجن).

إنه يرى أن تقديم كلمة (شركاء) قد أدّى إلى شرف المعنى، كما نبّه إلى عظم شأن النظم لأن (نعلم به) كيف يكون الإيجاز والاختزال، وما صورته، وكيف يزداد في المعنى من غير أن يزداد في اللفظ، إذ قد ترى أن ليس إلا تقديم وتأخير، إن حاولته مع تركه لم يحصل لك واحتجت إلى أن تستأنف له كلاماً نحو أن تقول: "وجعلوا الجن شركاء له"، وما ينبغي أن يكون "الله شريك" لا من الجن ولا من غيرهم

ثم لا يكون له إذا عقل من كلامين من الشرف والفخامة ومن كرم الموقع في النفس ما تجده له الآن وقد عقل من هذا الكلام الواحد"²⁵⁴، على أننا لو تمعنا في أنفس الألفاظ السابقة، وجعلناها في تراكيب لغوية مختلفة مثل:

- وجعلوا لله شركاء الجن.
- وجعلوا الجن شركاء لله.
- فإن التركيب الأول يفيد معنيين هما:
- معنى أول: وجعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله.
- معنى ثان: لا ينبغي أن يكون لله شريك من الجن أو من غيرهم.
- على عكس التركيب الثاني الذي ورد فيه التأخير فإنه يفيد معنى واحداً فقط وهو المعنى

²⁵² ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 223.

²⁵³ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، المطبعة العربية، تونس، ص 33.

²⁵⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 223.

الأول، لأنه اكتفى بالإخبار عن أنهم عبدوا مع الله شركاء من الجن، ومن هنا نلتمس أن التركيب الأول قد اختزل معنى "الإنكار" -المعنى الثاني- إن عبد القاهر حين أشار إلى هذا المستوى المحقق للنظم بمقتضى الاختزال والذي تعمل على ترسيخه تقنيات التركيب، قد "أشار أيضا إلى أن هناك إطارا مرجعيا يرافق هذه المستويات، ويكون حارسا على المعنى المقصود"²⁵⁵، وهنا يظهر جهد عبد القاهر في توفيقه من حيث مساوقته للمعنى والمبنى -التركيب- جنبا إلى جنب، هذا ما نستوجه من قوله: "اتسمت الدراسات اللغوية العربية بسملة الاتجاه إلى المبنى أساسا ولم يكن قصدها إلى المعنى إلا تبعا لذلك وعلى استحياء، وحين قامت دراسته علم المعاني في مرحلة متأخرة عن ذلك في تاريخ الثقافة العربية كانت طلائع القول في هذه الدراسة ما كانت في بداية دراسة النحو من قبلها تناولا للمبنى المستعمل على مستوى الجملة، لكن لا على مستوى الجزء التحليلي كما في الصرف ولا على مستوى الباب المفرد كما في النحو، ومن هنا رأينا عبد القاهر في دلائل الإعجاز يتكلم في النظم والبناء والتركيب والتعليق، وكلها أمور تتصل بالتركيب أكثر ما تتصل بالمعاني المفردة"²⁵⁶، وإن عبد القاهر قد عمل نحو إعطاء المعنى حقه من العناية بعدما طغى الاتجاه الشكلي على جل الدراسات السابقة عليه.

● أسلوبية النظم بين البنية الإنسادية والبنية الدلالية:

لقد استطاع عبد القاهر أن يتجاوز مفهوم الجملة بمفهومها البسيط كما هو معهود عند النحاة القدامى، وذلك لكونه لا يفي باستخلاص المعنى المتضمن في الخطاب اللغوي باختلاف أشكاله التعبيرية من كلام عادي وآخر فني، كما استنتج الإمام أيضا أن مفهوم مصطلح الإسناد في النحو العربي لا يتعدى أبعاده المحصورة، الأمر الذي يفسر قصور هذا النوع من التحليل لمركبات الكلام عن إدراك المعاني الدقيقة، لأنه يأخذ باعتبار أن كل ما زاد عن المسند والمسند فضلا يمكن الاستغناء عنه، وهذا ما "يدعوا إلى اعتبار أنك بما تزيده على جزئي الجملة فائدة أخرى، وينبني عليه أن ينقطع عن الجملة حتى يتصور أن يكون فائدة على حدة وهو ما لا يعقل"²⁵⁷، إذ لا يتصور في زيد من قولك: "ضربت زيدا" أن يكون شيئا برأسه حتى تكون تبعد تلك "ضربت" إليه قد ضمنت فائدة أخرى"²⁵⁸، وهذا ما دعا بعبد القاهر إلى اعتبار أن ما زاد عن ركني الجملة الأساسيين من متعلقات ذات دور فعال في تشكيل معنى الجملة، وأن ما يقدمه المسند والمسند إليه لوحدتهما غير كاف لاستيفاء معنى الجملة بمعنية متعلقاتها، وهذا ليس باعتبار

²⁵⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص222.

²⁵⁶ تمام حسان، اللغة العربية، معناها ومبناها، الدار البيضاء، ص12.

²⁵⁷ نور الدين محمد دنياجي، التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، ص147.

²⁵⁸ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص411.

أنها زيادة في الفائدة أو أنها تفيد معنى جديداً، بل لأنها تعمل على تشكيل معنى واحد أو صورة واحدة مكتملة، وقد استشهد في ذلك بدور المفعول به في الجملة الفعلية، وبالصفة في الجملة الاسمية وهذا واضح من قوله: "الحقيقة في هذا أن الكلام يخرج بذكر المفعول إلى معنى غير الذي كان: وأن وزان الفعل قد عدى إلى مفعول معه، وقد أطلق فلم يقصد به إلى مفعول دون مفعول)، وهذا ما يوضح تحول الدلالات بتحول الصيغ الشكلية التي تنتظم فيها وتحددها.